

بلاغة التفاصيل في رواية "366" لأمير تاج السر

أنجاة ذويب، باهنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان/تونس.

الملخص باللغة العربية:

تقدم هذه الدراسة قراءة في رواية "366" للروائي السوداني أمير تاج السر. اهتمنا فيها بالتفاصيل بما بلاغة يمتلكها الروائي لاستدراج قارئه وشدّ انتباهه وإيهامه بأنّ ما يقرأه حقيقة لا من صنع الخيال. ولا يكاد قارئ الرواية الحديثة ينفي طغيان ظاهرة التفاصيل عليها فما عادت تولّد الرواية شعريتها فقط من شعريّة اللغة إنّما تستمدّها أيضا من شعريّة التفاصيل التي هي رغم كثرتها لا تشعر قارئها بالملل. وقد كان لانتشار ظاهرة التفاصيل في رواية "366" دورا في إقبالنا عليها بالدراسة التحليل محاولة منّا ببيان مدى بلاغة هذه التفاصيل المستشرية في كلّ أركان القص من أحداث وشخصيات وأطر زمكانية. وقد وظّف الروائي تقنية الوصف التخيلي القائم على التفصيل فأسهب في ذكرها من خلال عرض تفاصيل تعيش البطل مع الشخصية وعرض أزمته ومعاناتها وما تمرّبه في حياتها الخاصّة، وغيرها من التفاصيل الصغيرة. ويسعى هذا المقال إلى بيان بلاغة التفاصيل في النص الروائي وبيان الوظيفة السردية التي تنهض بها دورها في سبك نسيج النص القصصي.

sammury

This study presents a reading in the novel "366" of the Sudanese novelist Amir Taj Al-Sir. We have interested the details, including the eloquence which is used by the novelist in order to lure the reader and pull his attention to make him that what is he read is fact not fiction. Thus, the reader of the modern novel can not deny the plenty of the phenomenon of details on it, that the novel does not engender its poetic only from poetic of language, but also derives it from the poetic details that are plentiful although the reader does not feel bored. The spread of the phenomenon of the details in the novel "366" had a role that made us to study by analysis Trying to reveal the eloquence of these details which are extended in all corners of the shear including the events, characters and frameworks spacetime. The novelist has been employed technique of imaginary description based on detail, and he has mentioned it amply by showcasing the details of the hero's coexistence with a personal and display its suffering and going through the details of her private life, and other small details. This article seeks to reveal the eloquence of details in the novelist text and narrative function which is risen by it, playing out its role in casting the texture of the fiction text

تُعتبر التفاصيل في الرواية العربيّة الحديثة ذات مكانة هامّة، لما لها من دور في إيصال النصّ الروائيّ إلى القارئ. فهي بلاغة يمتطها الروائيّ لاستدراج قارئه وشدّه إليه وإيهامه بأنّه في عالم حقيقيّ وليس من صنع خيال الراوي، وذلك عملاً على تأصيل العمل الروائيّ. وقد قال نجيب محفوظ في هذا السياق: "إنّ أكثر التفاصيل صناعة ومكراً لإيهام القارئ بأنّ ما يقرأه حقيقة لا خيال، إذ إنّه لا يُثبت الموقف أو الشخص كحقيقة مثل التفاصيل المتّصلة بها. وكلّما دُققت أسرع القارئ إلى تصديقها".

وإنّ دارس الرواية الجديدة يجدها تغرق في التفاصيل، فيشمل ذلك المكان كما الزمان والشخصيات والأحداث. ممّا يثير شهية القارئ للإقبال عليها خاصّة في ظلّ سيطرة الصورة في عصرنا الحاضر. وقد وجد الروائيّ في التفاصيل وسيلة لإشباع فضول قارئه وإغرائه بمزيد البقاء والتفاعل مع سير أحداث نصّه.. فمن خصائص الرواية الحديثة ميلها إلى التفاصيل والوصف الباهر مع السرد والحوار..فما عادت الرواية تولّد شعريتها فقط من شعريّة اللغة إنّما تستمدّها أيضاً من شعريّة التفاصيل التي هي رغم كثرتها لا تشعر قارئها بالملل، بل تشدّه إليها وتجعله يقدم على قراءتها بنهم.

وقد وجدنا في رواية أمير تاج السر "366" (1) هذا الإسهاب في ذكر التفاصيل، فهو يطنّب في ذكر الأحداث بما فيها الزمان والمكان ولا يترك شيئاً إلّا وقد قدّم له شرحاً مفصّلاً، حيث إنّ الرواية تستمدّ طولها من هذا الوصف التخيليّ القائم على التفصيل. وقد تمّ ذكر التفاصيل من خلال عرض تفاصيل تعايش البطل مع الشخصيّة وعرض أزمته ومعاناتها وما تمرّ به في حياتها الخاصّة، وغيرها من التفاصيل الصغيرة. لذلك قد ارتأينا أن نجعل هذه الرواية مدار هذه الورقة العلميّة التي وسمناها "بلاغة التفاصيل في رواية 366 لأمير تاج السر" والتي سنحاول من خلالها البحث في بلاغة التفاصيل في النصّ الروائيّ وبيان الوظيفة السردية التي تنهض بها التفاصيل ودورها في سبك نسيج النصّ القصصي.

1-تقديم الرواية:

إنّ رواية "366" رواية جعلها أمير تاج السر تدور حول رسالة من شخص سمّي نفسه "المرحوم"، كتبها إلى فتاة التقاها في أحد الأعراس والتفت فلم يجدها، ولم يعرف عنها سوى أنها تُدعى أسماء، ليظلّ لمدة ثلاث مائة وستّة وستين يوم يبحث عنها في كلّ أحياء المدينة ولكن دون جدوى. وخلال رحلة البحث هذه، تعترض حياة المرحوم أحداث كثيرة مع جيرانه البسطاء، ويعرض التحولات الاجتماعية والظروف السياسية التي يعيش فيها، إضافة إلى الصراعات النفسية التي يعاني منها أبطال الرواية.

وتنتهي الرواية باستقالة المرحوم من مدرسته التي كان يعمل بها مدرساً للكيمياء، للتفرّغ للبحث عن حبيبته أسماء التي رأها مصادفة في أحد الأعراس دون أن يتحدّث إليها أو يعرفها بنفسه أو يأخذ رقم هاتفها أو حتى يعرف اسمها الكامل وكيفية التواصل معها. حب صاعق يربك البطل ويجعله يقوم بسلسلة من التصرفات التي يسميها بنفسه حماقات...أليس مجنوناً من يستقيل من عمله ليتمكن من التفرّغ

للبحث عن أثر، أي أثر هام كان صغيراً لحبيبة رآها مرة واحدة في حياته؟ ويحصل بعد ذلك على فرصة لتدريس أحد أبناء الطبقة الثرية في الحي الذي يعتقد أن حبيبته أسماء تسكن فيه. ثم يتطرق إلى سماعه أن أحد الأثرياء سيعقد قرانه على فتاة من الطبقة الراقية تدعى أسماء، وتتم دعوة المرحوم للزفاف، ولكنه يقرز إنهاء حياته قبل أن يشاهد العروس ليعرف هل هي أسماء حبيبته التي لمحبها منذ عام أم فتاة أخرى.

الرواية هي عبارة عن رسالة يكتبها المرحوم إلى أسماء، ويؤكد في كل مرة أن الرسالة لن تصلها لكنه سيكتبها، وفي تلك الرسالة يصف عشقه وهواجسه وما يصادفه في حياته اليومية، وحتى معاناته من القهر السلطوي، وقهر المجتمع، وتدور الأحداث في نهاية حقبة السبعينات من القرن الماضي التي عُرفت بالانقسamat والتشتت. وبذلك تأتي رواية أمير تاج السر متزامنة مع تلك الحقبة المضطربة والغارقة في مستنقع الانقسamat والأحزاب والأزمات الاجتماعية.

في روايته "366" يلجأ الروائي إلى التفاصيل اليومية الغارقة في دقته، ينهل منها ليبني عليها عالم السرد الخاص. فقد استغل تلك الأشياء الصغيرة وشكل منها ركيزة أساسية للسرد في "366". فجمال السرد ودهشته تكمن في هذه المكونات التي تُبنى بها عوالم الفضاء والمتخيل. فالرواية عنده هي فنّ التفاصيل الصغيرة بامتياز. وسنحاول هنا البحث عن ملامح هذه التفاصيل وبلاغتها في الرواية.

2- ملامح التفاصيل في 366:

تعتبر الرواية بحثاً محموماً عن أسماء. هي بحث يكتب تفاصيله البطل على شكل رسائل يكتبها بقلم أخضر، يكتب يوميات بحثه عن أسماء المعشوقة الغائبة الحاضرة، ويصف ليالي أرقه واشتياقه وهو يفكر بها. ومن خلال هذه الحكاية يصف لنا الروائي أمير تاج السر تفاصيل العالم السفلي للمدن السودانية، الشوارع الخلفية، والفقر الذي يعيشه أهل المدن السودانية النائية. لقد اهتمّ الروائي بالتفاصيل. فقد وجدنا إسهاباً في ذكر التفاصيل. فهو يطنب في ذكر الأحداث بما فيها الزمان والمكان ولا يترك شيئاً إلا وقد قدّم له وصفاً مفصلاً، حيث إنّ الرواية تستمدّ طولها من هذا الوصف التخيلي القائم على التفصيل.

في روايته "366" يلجأ الروائي إلى التفاصيل اليومية الغارقة في دقته، يجعل منها ذريعة يبني من خلالها عالمه السرد الخاص، مستغلاً تلك الأشياء الصغيرة البسيطة حتى يشكّل من خلالها نصّه "366". فكانت هذه المكونات التي بُني بها عوالم الفضاء والمتخيل هي مبعث جمالية السرد في هذه الرواية.

وقد كانت التفاصيل اليومية الدقيقة محور التكثيف عند تاج السر. فشملت الأحداث كما المكان والزمان والشخصيات الفاعلة في النصّ الروائي.

2-1- التفاصيل في الأحداث:

يلجأ أمر تاج السر إلى التفاصيل اليومية الغارقة في دقّتها. وينهل منها ليبنى عالمه الروائي الخاص. فهذه الرواية لا تكتسب أصلها إلا من التفاصيل. فصاحبها مبدع متفرداً يُمسك بعدسة تقريبه من كل شيء وحتى البسيط من الأشياء وحتى تلك التي لا تلفت الانتباه. فهي أشبه بحصى الفسيفساء: كثيرة ومبعثرة، ودور المبدع يتمثل في إيجاد مكان يليق بها حتى تكتمل الصورة واضحة.

فمن صفحة إلى أخرى، ندخل أكثر في تفاصيل حياة الكاتب، وفي وهم هذا الحب التراجيدي. تفاصيل مؤثرة أكثر منها ممتعة أو مسلية. وقد حقق الكاتب هدفه، من خلال حسن اختياره المفردات والأفعال التي دفعت مسار الحركة السردية نحو نهاية تفوق حجم الحدث: يبدأ بوهم حب، يتطور من خلال الأفعال إلى عيش هذا الوهم، ودخوله في يومياته. ثم يؤول إلى النتيجة الطبيعية لهذه الحالة الموسومة بالاضطراب، وهي الانتحار، لتأتي النتيجة جزءاً لا يتجزأ من حال التحول التي أصابت البطل، التي تظهر إذا ما تأملنا الزمن السردى-التعاقبي: مرحلة قبل التعرف إلى أسماء التي تختلف عما بعدها... وربما استمد الحدث الدرامي قوته من فعل الانتحار والتخطيط المسبق له. هكذا، ارتبطت نهاية الرواية بواقع الشخصية المأزوم حتماً.

هذه الشخصية التي لم تع مآزقها، ولم تسع لتجاوز أزمته. وربما تلازم ضيق المكان الذي تتحرك فيه الشخصية بضيق أفقها ورؤياها: يسكن في بيته في "حي المساكن". يراه "كأبة مورثة... أنشأته السلطة الحاكمة في نهاية الخمسينات، ووزعته للطبقة الكادحة، بيوتاً ضيقة من غرفتين..." (2). وربما كانت هذه الكلمات بمثابة استباق أو إشارة إلى ما سيأتي.

هكذا، اشتدّ تقلص المكان، وتحديد نشاط الشخصية الروتيني في تأجيج الأزمة، أو بقائها كما هي دون السعي إلى حلها. وربما كان، في هذا الركود، تأجيج أيضاً، حتى بلغت الذروة الدرامية أوجها.

إنّ تركيز الراوي على المبتذل من الأحداث بسرده وإدراج التفاصيل الجزئية من الأعمال التي تقوم بها الشخصية ساهم في تغذية هذه الرواية وحسن تشكّل معالمها. فكانت هذه التفاصيل اليومية الدقيقة المستقاة من صميم الواقع هي محور التكتيف عند أمر تاج السر. ومثل هذه التفاصيل من شأنها أن تزيد في شهية القارئ وتشدّه إلى النص حتى النهاية حتى يتمكن من معرفة مجريات الأحداث. وقد أتى الراوي على ذكر التفاصيل من الأحداث التي ليست ذات قيمة في نص الرواية. وما تركيز الراوي على هذا الضرب من الأحداث إلا رغبة منه في مزيد تقريب الحدث من الراوي وجعله معيشاً له في كل مراحل الحكاية. حتى في البسيط والتافه من أحداثها ودقائق الأمور، من ذلك ما ذكره لنا من تفصيل في مختلف صفحات هذه الرواية كأن يعلمها بأنّ الجوع قد نهل منه كثيراً" (3) أو حين حدّثها عن عثوره على ذبابة قد وقعت في كأس الشاي في كافيتيريا سلامة(4).

تدور أحداث هذه الرواية بين استرجاع حدث اللقاء الأول واستباق حدث الانتحار، أمّا بقية الأحداث فهي تفاصيل لذلك. وقد تمّ وصف هذه التفاصيل، وبالتحديد مشاعر البطل ويوميّاته، بدقة غير متناهية تتأخّم حدود الهوس في تصوير حالته، في شيء من الطرافة والدعابة. هو الحب، أو وهم حب، سيطر على عقل البطل، وتحكّم بمسار حياته، التي أخذ يرويها بضمير المتكلم، متوجّهاً مباشرة إلى حبيبته المزعومة "أسماء"، والتي لم يعترف لها بحبه رغم عدم معرفته بها ولا حتى التقاها ولا حتى حدثها. فقد قرّر "المرحوم" الانتحار، ومات من دون أن تعرف تلك الحبيبة الغائبة/ الحاضرة في السرد، بأنّ ثمة من يحبها بهذا المقدار.

تلك الحبيبة "الشبح" التي لم تظهر طوال الرواية، حضرت من خلال حوار البطل معها. فكانت تستولي على المشهد من الخلف، وتستحوذ على اهتمام القارئ من دون حتى أن نلمحها.

366 يوماً من الحب، من البحث عن حبيبة، اسمها أسماء. يفتش عنها في الصور، في سلة الأحياء الراقية، في قصر الوزير... وذلك بأسلوب يطغى عليه التشويق. فيستمتع القارئ بلعبة شدّ الحبال وحبس الأنفاس. ترتفع معها وتيرة التشويق، مع كل محاولة، ومع كل طرق باب أمل جديد... وخصوصاً في القسم الثاني من الرواية حيث تجري عملية البحث عن "أسماء". وحيث يتجلى السرد مطعماً بالمأساة، الكآبة والسوداوية المتداخلة مع بعض الأنغام المنخفضة الوتيرة حدّ الهمس. وصولاً إلى النهاية غير المتوقعة والتي تفتح النهاية على احتمالات عدّة، وتبرز فيها جرأة البطل في ناحيتين: الأولى قدرته على عدم الذهاب للكشف عن هوية العروس التي من الممكن أن تكون "أسماء" التي يبحث عنها. والثانية في قرار إنهائه حياته بدم بارد. نهاية أكثر ما يجوز فيها طرح الأسئلة الفلسفية الوجودية، والاستعانة بعلم نفس الإنسان، الذي يعتبر أنّ كل يوم إضافي هو مضيعة للوقت، قبل الوصول إلى المحطة النهائية: الموت.

من خصائص هذه الرواية أنّ صاحبها يميل إلى الإسهاب في سرد الأحداث بما فيها الزمان والمكان والشخصيات فلا يترك شيئاً إلاّ ويقدم له وصفاً مفصلاً... حيث إنّ الرواية تستمدّ طولها من هذا الوصف التفصيلي الذي يسمها.

2-2- المكان فضاء مفصلاً:

في الحقيقة لم تشمل التفاصيل فقط الأحداث الروائية في رواية "366" وإنّما شملت كذلك المكان أيضاً. فأمر تاج السر لم يترك شيئاً إلاّ وقدم له جزئياته. فوجدناه يهتمّ بتفاصيل كلّ مكان تطأه رجلاه بحثاً عن أسماء. وقد ركّز تاج السر على تفاصيل المكان من خلال توظيف تقنية الوصف في تصويره

للمكان وجزئياته. فقد هيمن الوصف على رواية "366" محيلاً على حركية الراوي وانتقاله بين الأمكنة بحثاً عن أسماء. وقد كان الوصف عنصراً أساسياً في عملية السرد الروائي وقفنا من خلاله على بعض التمثلات لبعض المفاهيم والتصوّرات في الرسم الدقيق للأماكن التي يمرّ بها "المرحوم" أملاً في العثور على الحبيبة الحاضرة الغائبة. فالراوي، وهو يبحث عن محبوبته، نجده يركّز في وصف الأمكنة التي يمرّ منها، والوصف، كما يوضّح جينات، هو تشخيص لأشياء ولأشخاص في حين أنّ السرد هو تشخيص لوقائع وأفعال(5). من ذلك وصف النادي الذي أقيم فيه حفل الزفاف الذي تعرّف فيه على أسماء. فقد خصّه الروائي بتفصيل دقيق من خلال قوله "والمكان نادٍ شبه أرستقراطي عتيق، في وسط المدينة، قريباً من شاطئ البحر، يسمونه نادي الطلياني، اسمه استعماري صرف، لكنّي لم أر طليانياً أو أشباه طليان، أو غرباء آخرين، يتحاورون فيه في المرات القليلة التي طرقت فيها، ولا أعرف سرّ تسميته تلك، وإن كانت ملاعب التنس وكرة اليد والسلة، بنجيلها اليابس، والأزهار المحترقة على جانبيها، وطريقة زخرفة الأبواب والنوافذ. وأردية عماله المنسقة إلى حدّ ما، تدلّ على أنّه كان ذات يوم إحدى بؤر الغرب المتعدّدة في بلادنا، وفارقت الأرواح القديمة لتحلّ أرواحنا في المكان."(6) وقد ساهم هذا الوصف في إبراز أدقّ خصائص نادي الطلياني الأمر الذي جعلنا نشعر بأننا نطأ هذا المكان معه فنكتشف خباياه وأهم ميزاته وتاريخ تأسيسه. وقد ساهم هذا الوصف في إضفاء مزيد من الواقعية على الرواية نظراً لما يقوم عليه المكان من حقيقة قائمة في الواقع الموضوعي. وقد قال بارط في هذا المضمّار: "يفترض المرجع واقعيًا، ويتظاهر بكيفية مستعدّة يتحاشى الانقياد لنشاط الاستهلامية، وهو احتياط كانوا يظنّونه ضرورياً لـ"موضوعية" القصص."(7) فيتحقّق للسرد واقعية المكان من خلال ذكر تفاصيله من الداخل ومن الخارج وذلك بواسطة الوصف.

لكن هذا الوصف وإن ساهم في إبراز الظاهر والمخفي من المكان وتقريب الصورة من المروري له فإنّه قد ساهم في تعطيل حركة السرد بسبب الإفراط في ذكر الجزئيات والتفاصيل الأمر الذي أدّى إلى إحداث ثغرات في النص القصصي، فالوصف الذي لا يمكن للسرد أن يستغني عنه يُبطئ دوماً مجرى الأحداث أو الحكاية ويخلق تنوعاً في مستوى السرد."(8) الأمر الذي يجعل مجرى الأحداث يخرج عن مساره الأصل.

يأخذنا سرد أمير تاج السر وقصة صاحبه، إلى حكايات عديدة وتفصيل ثريّة في المكان.. تجذبنا إلى حي المساكن رأساً "كان حي المساكن، كآبة موروثية، هكذا اسميه يا أسماء، أنشأته السلطة الحاكمة في نهاية الخمسينيات، وزّعته للطبقة الكادحة، بيوتا ضيّقة من غرفتين، لا حوش كبير، ولا مزايا متعدّدة، ولا فرصة لأي إضافة مستقبلية مبدعة"(9)، وصف الحي هنا جعل الراوي يعرّج الوصف على البيوت ومنها يدخل إلى وصف دواخل هذه البيوت ومن ثمة يكتسي هذا الوصف دقته وأهميته في تقريب المشهد للقارئ وجعله إلى الواقع أقرب. كما جعلتنا جولة المرحوم ندور بين الأروقة والشوارع الفقيرة، ثم

تنتقل بنا مع صاحبه إلى حي البساتين، فنشعر بزهوره ونظامه ونظافته تطل علينا بين أهله وناسه. قصصٌ عديدة متتالية، وأمور تتشابك وتترابط وتبتعد وتلتقي، ونحن مأخوذون بقصة هذا الرجل وهل سيجد حبيبته في النهاية؟! وهو ما جعلنا نرتحل مع "المرحوم" في المكان كما في رحلة بحثه عن المحبوبة رغم أن الحكاية موسومة منذ بدأت باستحالتها، لأننا نعرف تمامًا أن رسائل المرحوم وُجدت ملقاة على الطريق، ولم تصل إلى متلقي غير ذلك الراوي .. الذي استلهمها لكتابة هذا النص.

إنّ الاهتمام بالمكان يفسّر بأنّ هذا العنصر الحكائي "هو الذي يضع أسّ القصة لأنّ الحدث يحتاج إلى المكان حاجته إلى الشخصية أو الزمان، فالمكان هو الذي يضيف على القصة المتخيّلة مظهر الحقيقة". (10)

وقد امتازت هذه الرواية بإسهاب صاحبيها في سرد الأحداث الهامّ منها وحتى الذي لا قيمة له على حدّ السواء، وهو ما من شأنه تعطيل حركة السرد، الأمر الذي أقرّبه جون ريكاردو في قوله: "الوصف يعلّق الزمن ويحدث تنوء شاقوليا (Excroissance Perpendiculaire) فيوقف مجرى الأحداث". (11) إلا أنّ هذه العلاقة بين الوصف والسرد وعلى رغم تضاربها وعلى الرغم من التوتّر الذي يخلقه التمازج بينهما في السرد فإنّها تعدّ حتميّة وضرورة في صناعة الرواية.

فهذه التفاصيل رغم كثرتها لم تقلق القارئ ولم تشعره بالملل، إنّما ساهمت في شدّه إلى النصّ وإيهامه بواقعيّة الرواية وبأنّه في عالم حقيقي وليس من صنع الخيال.

2-3- التفاصيل في ذكر الشخصيات:

كان حضور الشخصيات في رواية "366" حضوراً مكثفًا، إلا أنّ هذا الحضور قد جاء خاضعا لسلطة الراوي. فجاءت هذه الشخصيات مسرّدة محكيًا عنها، فهي حاضرة في خطاب الراوي ممّا جعلها محكيًا عنها في أغلب مشاهد حضورها.. وخاصّة شخصية الحبيبة أسماء، التي تحضر باعتبارها ضمير المخاطب الذي بوجوده يتحقّق فعل السرد. غير أنّها لا تحضر كشخصية روائية فعلا وملفوظ، أو حدث يساهم في تطوير السرد إنّما هي حالة تساهم في نمو السرد وتحقّقه.

تعدّ الشخصيات مجرّد وسائط لوصول السارد إلى حلمه المنشود وهو العثور على حبيبته أسماء، فكلّ شخصية موكول إليها مهمّة تقديم معلومة أو فكّ لغز أو ترتيب فكرة ما، وبانتهاء المهمّة التي خصّها بها الروائي تغادر هذه الشخصية الفضاء السردى وذلك بعد أن تساهم بنصيبها المطلوب منها في جعل عملية البحث عن أسماء تستمرّ وتتواصل. وهو ما يجعل من هذه الشخصيات مراجع نصيّة للحكاية المروية يعود إليها الراوي كلّما اقتضى الأمر ذلك.

اهتم أمير تاج السر بشخصياته الروائية. فأطنب في رسمها. فيمكن أن نقف على وصفه للمرحوم بغاية تقديمه للقارئ ورفع الضبابية عن صورة البطل. فكان أن دقّق الوصف في رسم صورته في معرض

تقديم نفسه لأسماء في إحدى الرسائل "أتيت إلى الحفل متأقفا بحسب تصوّري، ولم أكن ضليعا في الأناقة، في أي فترة من فترات حياتي، أرتدي ملابس راعيت فيها أن تبدو ملابس معلّم في مدرسة، ربّما يصادفه أحد تلاميذه في الحفل...قميص أبيض بلا خطوط إضافية، وسروالي أزرق فاتح، وعطري واحد من تلك العطور السائدة في السوق، أظنّه كان عطر ماكسي أو جاكوما، أوون مان شو...ولم تكن لدي حيلة لأجعل وجبي شديد الفرح، فقد كان وجهها جامدا، ممتلئا بتجاعيد، ورثتها من أسرة لم تورث سوى التجاعيد." وقد أراد الراوي من خلال هذا البسط الذي قدّمه لشخصيّة المرحوم أن يرسم لنا الوضع الاجتماعي الذي يعيشه بنو طبقته في السودان في تلك الفترة، فهو المعلّم الذي بالكاد يكفيه مرتّبته الشهري، ناقدا مهنة التعليم التي لا تسد رمقا والمحدودة الأفاق وعالم التدريس الذي يحنّط المدرس ويحدّ من مخيلة التلاميذ أيضا بحكم المواد الجافة والمكررة التي تدرّس لهم سنويا.

لكنّ الراوي لم يكتف بذكر السمات الخارجيّة للشخصيّة ومكان عيشها ومظهرها الخارجي وظروفها المعيشة لكنّه يلج عالمها الداخلي فيصوّره أحسن تصوير، الأمر الذي يجعل القارئ يغموض في داخل الشخصيّة فيعيش ما تشعر به، يتألّم لألمها ويفرح لفرحها. وفي وصفه لحالة شخصيّة المرحوم في قوله "عند عودتي منهارا، مكسّر الأحلام، إلى حي المساكن..كدت أضحك يا أسماء، ولولا أنّي في حالة بأس عظيمة لضحكت بالفعل..." (12) أراد الكاتب أن يرسم لنا حالة المرحوم بعد انقضاء يوم في البحث عن أسماء دون العثور عليها ويبيّن لنا حالة الانكسار والانهيار التي وصل إليها جراء عدم العثور على الحبيبة المتفلة من قبضته.

دقّق كذلك الراوي في وصف بعض الشخصيات الأخرى في الرواية فأطنب في ذكر التفاصيل من خلال ممارسة فعل الوصف الدقيق الذي من شأنه أن يقدّم صورة أكثر وضوحا للقارئ، وتعتبر أسماء من أكثر الشخصيات التي أسهب الراوي في وصفها ودقّق في ذلك في مواطن عديدة من الرواية، من ذلك قوله "وجدتك أمامي كاملة، سخية الجمال، متهوّرة في العطر والشعر والسحر، كأنك خرجت من أمنية المغني، التي تحدّث فيها عن الإشراق، ومن فوضى عازفي الطبل والغيثار...حقيقة لا أعرف كيف أصفك...كان ثوبك أسود بنقوش حمراء، لعلّها كانت مشاريع أزهار ستنتبت، لكن المصمّم ألغاهها بحنكة، لاستحالة أن تنبت أزهار أخرى، على جسد زهرة...لم أميز أي إضافات خادعة على الوجه، ولا شبه استعارة على الشعر الذي تمدّد حتى الكتفين، والعطر الذي رجّني حقيقة، لم يكن مثل عطري السائد، الذي لا يبرّج حتى شعرة واحدة..." (13) يدقّق الراوي في وصف أسماء فيكاد يهرب منه خيط القصّ فينزاح عن الموضوع الأصل لنجده ينزلق بنا إلى مواضيع أخرى لها صلة بالشخصيّة أو بالمكان الذي توجد فيه الشخصيّة موضوع الوصف. الأمر الذي يجعلنا نتوخّى التركيز ونحن نسلك غياهب هذه الرواية حتى لا نتوه بين جزئياتها فيفلت من قبضتنا المهمّة والرئيس من أجل أن نغوص في الجزئي الذي لا قيمة له.

يهتمّ الراوي بذكر تفاصيل ما تأتيه أسماء من أفعال وهي في حفل الزفاف، فيذكر حتى التافه من أفعالها وذلك بغية توحّي الدقة والتفصيل في ذكر ما ينقل لنا، وكأننا به يريد أن يجعل القارئ شاهداً على ما ينقل من خلال تقريب الصورة منه..ولنا في هذا المقطع مثال على ذلك "...ردّد أغنية راقصة، شاركت فيها برقصة، متزنة ونزلت، تابعتك وأنت تمشين، رصدت مشيتك بوله، وأنت تجلسين على مقعد بجوار نساء أخريات يعرفنك...سمعتك تتحدّثين..."(14)

اهتمّ كذلك تاج السر ببقية شخصياته بمختلف مراتبها في الرواية. فلم يترك شخصيةً مرّ بها في الرواية إلا ووقف عندها مانحاً إيها فسحة من النصّ، ودورا في دفع الحدث القصصي. فيقف عندها واصفاً إيها في ما يكتبه من رسائل إلى أسماء، من ذلك شخصية شمس العلاء التي لقيت اهتماماً كبيراً من قبل الراوي، شأن بقية الشخصيات الأخرى، فوقف عندها واصفاً مدقّقاً في قوله: "كان شمس العلاء شاباً في الثلاثينات، نحيفا، غزير شعر الرأس، وغريب السلوك إلى حدّ ما، كما سأخبرك لاحقا، ويملك موهبة فذة في شدّ طلابه، وزملائه معا، وكان قد سقط في العشق المجنون، قبلي بعام تقريبا، تعلّق بواحدة من بنات الأسر العريقة في المدينة، ويسعى إلى الارتباط بها ولكن في صمت."(15) ، وكذا الشأن بالنسبة لفاروق كولومبس، وزوجته عفراء، والمقدس "قدسي قرياقوس" والألماني وغيرهم، شخصيات رُسمت بدقة داخل الرواية حتّى أننا نكاد نرى كل واحدٍ منهم بطلاً مستقلاً بذاته وعالمه، وقد جعلنا أمير تاج السر نفكر فيما فعله أو سيفعله بعد أن تنتهي رسائل المرحوم. إنّها شخصيات أخرى تبحث عن حياتها وعن ملء فراغاتها بأحداث مثيرة داخل ذلك العالم الفقير.. حتى يكون لوجودهم أثر ما. فالوصف ضرورة فنية اتسمت بها روايات الواقعية في القرن التاسع عشر. وهو أداة فنية مهمة وضرورية في مقارنة الواقع مقارنة علمية. الأمر الذي تأثر به أمير تاج السر في روايته بليغ التأثير، فقامت أغلب مقاطعه السردية مفعمة بالوصف وذكر الدقيق والجزئي من الأحداث.

يهرنا أمير تاج السر بشخصياته فنجدها جديرة بالتعرف عليها. ومتابعة خطواتها في الرواية، كلّ واحد منا يوجد في خياله اسم يبحث عنه وقد نشته به مع العديد من الأسماء مما يعقد عملية البحث الخيالي.

3-وظائف التفاصيل في رواية 366:

توحّي الراوي نهج التفاصيل في سرد أحداثه وفي رسم شخوصه وأطرها التي تدور فيها، سواء من خلال سرد المفصل من الأحداث أو من خلال التكفل بعملية الوصف فيمدنا بمعلومات دقيقة حول مكان ما أو شخصية ما. ومن شأن هذه المعارف المكتسبة، التي تفضّل الراوي بذكرها بله التفصيل في ذكرها، أن تُرّي لنا الموصوف من الأشياء كما لو كان أمامنا. وهنا تهض هذه التفاصيل الجزاءة في النصّ بوظيفة تعليمية لما للوصف من دور في بثّ معرفة واكتسابها، من خلال ذكر معارف تتعلّق بخصائص الموصوف وعناصره وما يتفرّع عنها. وهو ما يمكن توضيحه بما يلي: "كان المكان شبه خاو، ثمة سائحتان تبدوان من

شرق أوروبا، تتلاعبان بعقود من الخرز المحلي، شاب متفائل، يتسم بلا معنى، نشال معروف طاف بالمكان على عجل، ومضى، وصاحب الكافيتيريا يطالع شريطاً سينمائياً قديماً، من بطولة المصري "محمود المليجي" على تلفزيون باهت في وسط المكان... (16) فالتفصيل هنا في وصف المكان قد أدى وظيفة تعليمية إخبارية قامت على تقديم معلومات مفصلة دقيقة على محتويات هذا المكان. فقد قدم لنا الراوي، من خلال امتنائه لتقنية التفصيل، معلومات جاهزة فكناً مجبورين على تقبلها وتتبع خطها الناظم لها مع البحث عن كيفية الإفادة منها، مع أنها لا علاقة لها بسير الأحداث شأنها شأن غالبية الأحداث المفصلة التي جاء بها أمير تاج السر.

ساهم الوصف الموظف بكثرة في حنايا هذه الرواية في ذكر دقيق التفاصيل. وهو ما عمل من خلاله الراوي على إمكانية إيراد العالم كما هو، وقد أدى الوصف القائم على المحاكاة في عديد المواطن من الرواية وظيفتين اثنتين هما بناء مكان القصة وزمانها وتقديم الشخصيات وكذلك الإيهام بالواقعية في ما يروي من أخبار وأحداث اعترضت سبيله أثناء عملية البحث عن أسماء. فالشخصيات الموظفة هي شبيهة بالبشر، أسماء (غفراء، محي الدين، عبد القادر...) وكئي (ألماني، السعودي...) ومنزلة اجتماعية (معلم). وكذلك الزمان فهو يمثل الزمان البشري الواقعي (يوم الخميس، حين مالت الشمس...).

لقد قامت هذه التفاصيل التي جعلها الراوي تقنية، فكشفت لنا عوالم في المكان وخصائص دقيقة عن الشخصيات وجزئيات بسيطة في سير الأحداث ليست ذات قيمة، ما كان خيالنا ليطأها لولا غوص الراوي فيها وذكرها بكل دقة.

لم تكتف التفاصيل في هذه الرواية بإضفاء طابع الواقعية عليها، وإنما تجاوزت ذلك مع أمير تاج السر لتكون وسيلة لتأدية فعل السرد ونموه، رغم تعطيلها لحركة السرد في غالب المواطن من الرواية. هذا إضافة إلى الوظيفة التعبيرية التي تؤذيها التفاصيل إذا ما اعتبرنا أنّ وجهة نظر الشخصية المنظمة لعملية الوصف الدقيق هي علامة من علامات الذاتية في الخطاب. كما قد يكون الوصف تعبيرياً حتى في حالة التبئير الصفري في حالة انعدام الرؤية.

خاتمة البحث

أبدع الروائي السوداني أمير تاج السر في حيك القصة بطريقة محكمة فنسج خيوطها بدقة واقتدار خاصة حين أضاف لها تفاصيل جريمة غامضة تحدث بالتوازي مع عملية البحث عن أسماء. جريمة يجد البطل نفسه المتهم الأول فيها. وقد سلك أمير تاج السر مسلك التفصيل وعرض الجزئيات في نسج روايته. وقد استقت هذه الرواية ثراءها وطولها من التفاصيل التي أطنب تاج السر في توظيفها على الرغم من تعطيلها سير فعل السرد.

إنّ التدقيق في الوصف وذكر الجزئيات حتى البسيط منها والتدقيق في تلك التفاصيل الصغيرة للأمكنة والحالات والأمزجة والخطابات إنّما يجسّد لنا حالة الراوي وهو يبحث عن حبيبته في مختلف الأمكنة وكذلك في الأحياء والأزقة والبيوت وفي الذهنيات الاجتماعية والتصوّرات والمعتقدات الدينيّة. وهو ما جعل هذه التفاصيل مبعث جماليّة الرواية.

الجدير بالملاحظة أنه رغم كل اليأس الذي يكبل العاشق، وهو يبحث عن معشوقته، فإنّ القصة لا تخلو من مواقف كوميدية رشيقة تفتك منا ابتسامات تنسينا هم العاشق الحائر، تجعلنا منشدّين نحو هذه الرواية التي قامت على أسلوب في الكتابة شيق شدّت انتباه القارئ فجعلته أسير النصّ، وتمكّنت سلاسة اللغة وبلاغة التفاصيل فيها من شدّنا بعمق إلى أحداث الرواية بحيث لا يقدر قارئ هذه الرواية التوقّف عن القراءة ما لم يكتشف النهاية التي آل إليها هذا العاشق.

هوامش البحث:

- 1-أمير تاج السر:، 366، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2012.
- 2-366، ص:20-21.
- 3-366، ص:48.
- 4-المرجع نفسه، ص:60.
- 5-Gérard Genette, *Figure2*, Sueil, Paris, 1969, P: 56.
- 6-366، ص ص:14-15.
- 7-رولان بارت، فيليب هامون، وآخرون، الأدب والواقع، ترجمة عبد الجليل الأزدي ومحمد المعتصم، دار الاختلاف، 2003، ص:41.
- 8- Jean Michel Adam, *Le récit*, PUF,Collection, Que Sais Je, Paris, 1984, P:47.
- 9-366، ص ص:20-21.
- 10-Henri Mitterrand, *Le discours du roman*, PUF, 1980, P:194. نقلا عن محمد نجيب العمامي، الوصف في النص السردى: بين النظرية والإجراء،
- 11-Jean Ricardeau, *Nouveaux problèmes du récit*, Collection Poétique, Seuil, Paris, 1987. P:27.
- 12-366، ص:36.
- 13-المرجع نفسه، ص:17.
- 14-366، ص:18.
- 15-المرجع نفسه، ص:12.
- 16-366، ص:50.